Dirassat & Abhath
The Arabic Journal of Human and Social Sciences

مجلة دراسات وابحاث
المجلة العربية في العلوم الإنسانية والاجتماعية

EISSN: 2253-0363
ISSN : 1112-9751

الرمز في الشعر الصوفي "ابن عربي أنموذجا"

The Symbol in Sufi Poetry "Ibn Arabi as a Model

بن عودة سليمان
طالب دكتوراه ، قسم اللغة العربية وآدابها - جامعة تلمسان
مخبر الدراسات الأدبية والنقدية وأعلامها في المغرب العربي
benaoudasoul@gmail.com
أد فارسي عبد الرحمن
قسم اللغة العربية وآدابها - جامعة تلمسان
abou.fares2019@hotmail.com

المؤلف المرسل (باللغتين) : بن عودة سليمان Benaouda Souleyman الإيميل: benaoudasoul@gmail.com

تاريخ الاستلام : 2022-12-10 تاريخ القبول : 2023-03-09

الملخص باللغة العربية:

يُعدّ الشعر الصوفي من فنون الأدب التي ظهرت في العصور الإسلامية، وتطوّرت فيما بعد تطورا عميقا، نظرا لأن هذا الشعر استفاد من التراث الشعري الذي سبقه، وقد بلغ أوجّه في القرن السابع الهجري، ولعلّ أبرز ما يلفت انتباه القارئ لهذا الشعر، تلك الجمالية التي يمتاز بها وذلك الغموض الذي يكتسيه، بحيث يصعب فهم معانيه، و فكّ رموزه وشفراته إلّا إذا كان هذا القارئ فاهما للقاموس الصوفي، ومن هذا وذاك وقع اختيارنا على نص من نصوص "ابن عربي" من خلال " ترجمان الأشواق"، وحاولت فيه دراسة تلك الرموز والشفرات الموجودة داخل قصيدة "مريضة الأجفان."

الكلمات المفتاحية:الشعر، الرمز، التشفير، الصوفي

Abstract:

"Sufi" poetry (Mystic poetry) is considered one of the streams of arts in literature which emerged during the Islamic era and evolved rapidly later on since it took advantage of the reminents of poetry heritage which proceeded it. This kind of poetry reached its peak in the seventh Hijri century (around 13 century C.E), and maybe the most prominent aspect which grasp readers' attention to it is its poetic beauty and its mysteries which makes it difficult to be well understood and even harder to transcribe its symbols and codes unless the reader has a knowledge of Sufi's connotations and symbolism. Hence, the researcher opted for a text from the writings of "Ibn Arabi" : "Tourjuman Al Ashwak" ("The Longing translator") to attempt a study on its symbols and codes in the poem of "Maridat o Al Ajfan" (The Eyelid Patient).

Keywords: Poetry, symbol, cipher, mystic

مقدمة:

إن النص الصوفي متفسح جعل العقل والقلب حبرا والذائقة حرفا، والحرف بيتا والكل بحرا، يركبه الإنسان ليلج نحو عوالم الجمال فما أجمل أن يكون هذا الإنسان البحر معجمه الخاص وقافيته أحرف .إنسانا صوفيا مشفرة، لن تفقه وزنها إلا إذا كنت فقها بالتغاير، وقد جرتنا البوصلة فرحا إلى مقام الولي الصالح "ابن عربي " فوقفنا على ضريحه، بإعطاء نظرة موجزة ملخصة لمسيرته، وكذا سلوكه الطريق الصوفي وقصة "ترجمان الأشواق"، مع تحليل قصائد من قصائده بذكر الاختلاف والتغاير في التأويل وإعطاء المعنى الصحيح لها، وتبيان .الجمالية التي تكتسيها هذه القصائد.

وسنسعى من خلال مقالنا هذا تحقيق أهداف أبرزها : تعريف التشفير والرمز، والشعر والتصوف والعلاقة بينهما، والوقوف عند شعر "ابن عربي"، وابرز هدف كيف نفك الرمز الصوفي من خلال نص من نصوص "ترجمان الأشواق "، مع إعطاء لمحة عن الاختلاف في تأويلها، وأين تكمن جمالية استعمال الرمز والتشفير في هذه القصائد

الشعر والتصوف:

الشعر و التصوف حقلان متقاربان في عالم معرفي واحد هو عالم الروح المتخفي وراء عالم الواقع إنهما يصدران عن روحية العالم فهما يتفقان في الأسلوب أيفي الصورة و الإيقاع في اللغة .[1]

و يرى جودة نصر :" هناك وشائج قربى تجمع بين التصرف و الفن بشكل عام و بينه و بين الشعر بشكل خاص هذه الوشائج تتمثل في أن لكليهما بحيل إلى العاطفة و الوجدان"

إذن الشعر و التصوف من نسق واحد فالتجربة الصوفية والتجربة الشعرية علي حد سواء هما في حقيقتهما تجربة حياتية و نفسية شعورية تكشف عن واقع الحياة اليومية و ما تبلور عنها في مشاعر وجدان الشاعر"[2]

و علاقة الشعر و التصوف ملفتة للنظر لأن القصيدة الصوفية التقليدية هي فرع أصيل من شجرة الشعر العربي لان أعلام الشعر العربي الحديث كالبياتي و أدونيس و صلاح عبد الصبور ينحون في بعض أشعارهم منحنا صوفيا .

و الشعر الصوفي تطور عن الشعر الديني الإسلامي و تطور للغزل العذري المتصوف الهائمفي مسارح الجمال الروحي و كان قسم منه تطور لشعر الخمريات في الأدب العربي و قسم آخر و هو الخاص بوصف الذات الإلهية كان تطورا لفن الوصف في أدبنا القديم و شعر المدائح النبوية كان كذلك تطورا لفن المدح في الشعر العربي " [3]

و أجمع الدارسون أن هذا الشعر يتميز بالغموض و عدم فهم الناس له، أي أنه كان و لا يزال في غالبيته شعرا مشفرا و التشفير لغة من " شفر يشفر تشفيرا ".و نقول شفر الرسالة كتبها بالرموز و اصطلاحا هو طريقة لإخفاء الشكل الحقيقي للرسائل حتى و لو سقطت في يد العدو فإنه يصعب فهمها وهو ما عرف به الفراعنة و العرب و الصينيون قديما "[4]

لعل الهدف من وراء ذلك عندهم السرية و الخصوصية و التواصل فيما بينهم .

و لا يخفى على أحد أنه يوجد قلة من فهموا هذا الشعر و ما أريد به و ما الغاية من ورائه . لهذا نجد الأغلبية أنهم ابتعدوا عن هذا الشعر نظرا لما يحويه من غموض .

وحتى المفسرون والدارسون للشعر الصوفي ، نجد لكل واحد منهم مفهوما خاصا ، فنتج عن ذلك اختلاف في الشرح والتأويل ، ما نسميه نحن بالتغاير أو التغيير الذي هو لغة : |" تغير . يتغير . تغيرا. تغير الشيء عن حاله . تحول وغيره حوله و بدّله، كأنه جعله غير ما كان " [1]

و اصطلاحا هو " إحالة اللفظ عن حاله وصورته إلى صور أخرى بزيادة أو نقصان أو تبديل " [2]، أي إخراج اللفظ عن صورته الحقيقية ، وعلى سبيل المثال للتشفير بالتغاير نذكر أبو عبد الله حسين بن منصور الحلاج ، الذي نفذ عليه الحكم المقتدر بالله ، وهذا بعد اتهامه بالزندقة ، بإجابته عن الأعرابي الذي سأله عما في جبته فرد عليه الحلاج :" ما في جبتي إلا الله " فأقيم عليه الحد ، هنا شفر ابن منصور كلامه، وفهمه الناس فهما خاطئا ، بحيث كان يرمز في كلامه إلى الدرهم أو المال في قوله " الله " ، أي ما كان يعبده العرب ، أو لشدة تعلقهم بالمال ، هنا يكمن الفهم أو الشرح بالتغاير .

إذن الشعراء الصوفيون كثر ، ومن هم من أبدع في استعمال الشفرة أو الرمز في نصوصه الشعرية ، الرمز الذي هو لغة :" كل ما أشرت اليه مما يبان بلفظ أي شيء أشرت اليه بيد أو بعين ورمز يرمُز ويرمِز رمزا " .

كما جاء في محكم الكتاب: ﴿ألاَّ تُكلمَ النّاسَ ثلاثةَ أيامٍ إلا رَمْزًا ﴾ [3]

واصطلاحا هو : " تصويت خفي باللسان كالهمس أو بتحريك الشفتين بكلام غير مفهوم " [1]

ومن أبرز من كتبوا قصائدهم برموز و شفرات خصوصا القدامى، ابن الفارض ، وابن عربي الذي اشتهر به كثيرا وسنخصص له قسطا وافرا من بحثنا هذا .سنحاول فيه تحليل قصيدتين من قصائده ، و يوجد من المحدثين أيضا من استخدم الرمز في شعره ، من هم جزائريون ، على سبيل المثال سليمان جوادي .

ويصعب على دارس التراث الصوفي فهم مضمون تلك القصائد ، نظرا لاستعمال الصوفيين مصطلحات خاصة بهم ، ولكن لا ضير من المحاولة .

ابن عربي؛ ترجمته وسيرته العلمية :

ولد ابن عربي في أسرة عريقة تعتز بأصلها العتيق، فهو من نسل حاتم بن عبد الله الطائي المتوفي سنة 578م، وهو الجواد الفارس المشهور بكرم الأخلاق وكان مظفرا، إذ قاتل غلبا إذا أسر أطلق، وإذا غنم أعطى، وإذا سئل أجاب، ضر المثل بجوده حتى قد رويت عنه الأخبار، ونسجت حوله القصص في الآداب العربية والفارسية والتركية والهند وله ديوان شعر يدور حول الجود والخلق الكريم.

وورث أولاده وأحفاده هذه الصفات منه، واعتزوا بها وحرصوا عليها وكانت شعارا لهم، ولم ينس ابن عربي- وهو شاعر محيد- التغني بهذه الصفات الكريمة التي ورثه اياها نسبه العظيم، فقال في أحد قصائده:

إذا قل بغي لم تقل عزائمي.... فلا عزمات شاحذاتصوارمي.[2]

نسبه:

ابن عربي؛ 560-638هـ، 1165م- 1240م

هو محمد بن علي ابن عربي، ابو بكر الحاتمي الطائي، الأندلسي، المعروف بمحي الدين بن عربي، الملقب بالشيخ الأكبر فيلسوف من أئمة المتكلمين في كل علم.

ولد ب" مرسية" الأندلس، انتقل إلى إشبيلية، ثم قام برحلة إلى المشرق العربي فزار الشام وبلاد الروم والعراق والحجاز.

وأنكر عليه أهل الديار المصرية " شطحات" صدرت عنه فعمل بعضهم على إراقة دمه كما أريق دم الحلاج، وحبس. ثم أطلق سراحه، فاستقر في دمشق، وتوفي فيه، وقبره بالصالحية في مسجد يعرف باسمه في سفح جبل قايسون لقب ابن عربي ب" محي الدين" باعتبار مصنفاته إذ بلغت نحو اربعمائة كتاب، ويعرف بالأندلس باسم ابن سرقة.[3]

شيوخه:

ولعل أبرز أساتذته أبا بكر محمد بن خلف اللطفي الاشبيلي وهو من أكبر العارفين بالقراءات والعربية، وكان مقدما فيهما. وله مؤلفات نافعة في اللغة والقراءات والتفسير، توفي سنة 517هـ، قرأ عليه ابن عربي القرآن الكريم بالسبع وانتفع في ذلك أيضا بكتاب " الكافي في القراءات السبع"عن طريق ابن مؤلفه ابي الحسن ابن محمد بن شريعالرعيني الذي كان يحدثه بهذا الكتاب عن أبيه.

وانتفع بهذا الكتاب أيضا عن طريق شيخ آخر هو ابو القاسم عبد الرحمن بن محمد القرطبي المعروف بالشراط وكان عالما بالقراءات وطرقها بصيرا باللغة العربية وآدابها له حظ من قرض الشعر فاضلا زاهدا ورعا توفي سنة 586هـ.(1)

وقرأ ابن العربي كتاب التيسير لابي عمر الداني على شيخ جليل هو ابو بكر محمد بن أبي حميرة ، وسمع الحديث في قرطبة من ابي القاسم خلف بن عبد الله بن مسعود بن شكوال.

وكان من شيوخ ابن عربي في الحديث والفقه والادب ابو عبد الله محمد بن سيد بن أحمد بن سعيد المعروف ببني زرقون المتوفي سنة 586هـ شهد له بالبراعة في الأدب والمشاركة في قرض الشعر.

ومن شيوخه أيضا ابو محمد عبد الحق بن عبد الرحمن بن عبد الله بن حسين بن سعيد الاسدي الاشبيلي وكان هذا الاخير فقيها حافظا عالما بالحديث وعلله عارفا بالرجال موصوفا بالخير والزهد والورع أديبا شاعرا توفي سنة 588هـ .

وكذلك من شيوخه نجد في الحديث والفقه أبو بكر محمد بن عبد الله بن يحي بن جد كان في وقته فقيه الأندلس وحافظ المغرب لمذهب مالك غير مدافع ولا منازع عرف عليه خطبته وفصاحته وعرف بالحافظ لكونه أعجوبة في سرعة الحفظ وبلغ به العلم إلى مرتبة علية بحيث إن يوسف بن عبد المؤمن كان ينزل له عن فرسه إكراما له توفي سنة 586هـ

ومن شيوخه أيضا أبو محمد عبد المنعم بن عبد الرحيم الخزرجي الغرناطي فكان له تحقق بالعلوم على تفاريقها و أخد منها في كل فن وكان من أعلام الناس في الاندلس بمذهب مالك وهو من أهل بيت عريق بالعلم توفي سنة 575هـ

أبو القاسم جمال الدين عبد الصمد بن محمد بن أبي الفضل الخرساني قاضي القضاة ولد سنة 520هـ وكان فاضلا فقيها شافعيا صالحا عابدا عدلا توفي سنة 614هـ هو الآخر كان من شيوع ابن عربي.

وكان لدى ابن عربي استعداد قوي لطلب العلم وإقبال شديد على ارتياد موارده وإنتهال فيضه وكان عند فهم شديد إلى القراءة بكل ما يتصل بفنون العلم الأخرى وهو ما حدث به في كتاب المحاضرة عن قراءاته لكثير من الكتب في مختلف الفنون. [4]

سلوكه للطريق الصوفي :

لعل البيئة التي نشأ فيها الشيخ ابن عربي كان لها الأثر الكبير في اتخاذ الصوفية مذهبا ويعود ذلك لأبويه وأعمامه الذين عرفوا بالصلاح والزهد وكذا الزوجة الصالحة التي كانت يد العون له دائما، وقد قلد ابن عربي وظيفة كاتب في حكومة اشبيلية ولم يبق في هذا المنصب كثيرا حتى ضاق تلك القيود وكان إلى الحرية ليتفرغ لما اختاره لنفسه على هدى من الله من زهادة وتقشف وما ساعده على ذلك المرض الشديد الذي أصابه وألزمه الفراش فلما برأ منه كانت نفسه قد خلصت من شوائبها كالذهب الذي تهذبه النار وتهيأ للانصراف كلية على حياته الجديدة و كلف تفرغه الكامل لعالم يتيم إلا بعد وفات أبيه وقد ألزم نفسه الخلوة بين الحين والآخر وحبب ابن رشد بعد ذلك الخلوة محي الدين بعد محاولة جرت بينهما فانقطع عن الناس

وعاش بين المقابر يقول الشعراني " ثم إنه طرقه طارق من الله عز وجل فخرد في البراري على وجهه إلحاحا نزل في قبر فمكث فيه مدة ثم خرج." ويقول صاحب شذرات الذهب برز متفردا مؤثرا للانعزال عن الناس ما أمكن حتى أنه لم يكن يجتمع به إلا الأفراد." ويحدثه عن نفسه في كتاب الفتوحات قائلا :"لقد كنت انقطعت فالقبور مدة منفردا بنفسي فبلغني ان شيخنا يوسف بن خلف الكومي قال إن فلان وسماني ترك مجالسة الأحياء وراح يجالس الموتى" .

وقد حدثت محاورة بين هذا الشيخ وبين بن عربي انتهت باعتراف الشيخ بأن:" الذي يجالس الأموات هو الذي يعيش بين الاحياء لا الذي يعيش بين القبور "[1]ولعل ابن عربي تعلم الاتصال بأرواح الموتى بشيخ شهير بالكرامات هو ابو الحجاج يونس البشربلي وتلقى في عملية محاسبة الضمير يوميا عن شيخين متخصصين في ذلك هما أبو عبد الله بن فيسوم وتتجلى طريقته في محاسبة الاقوال والافعال وأضاف بن عربي محاسبة الخواطر ونجد أن أشد صلة أثرا في تكوين ابن عربي هي تلك التي عاقدها مع شيخه ابن العباس العريني لأنها كانت الأولى والأثبت وأصله من العلياء والتي كانت تعاليمه تقوم في جوهرها على طاعة الله وقطع العلائق لتتبدل بها علائق اخرى مع الله وموضوعات مذهبه في الزهد والتصوف وعلمه كذلك يوسف الاسجي القيمة الصوفية للصدقة ابو عبد الله الشرفي علمه كذلك الخلوة في الظلام حتى يتجنب لكل داع إلى تشتيت الخواطر كما تعلم التجول بالنية إلى الصوفي من معاشرته الصالح البربري ومن شيوخه عجوزتان صالحتان هما ياسمين وهي صوفية من مرشانة الزيتون وفاطمة القرطبية كانت ذات أموال.

هكذا إذن أتمّ الشيخ الأكبر تكوينه الصوفي بإشراف جميع الشيوخ الذين ذكرناهم وكان يقضي أياما كثيرة في مسجد الزبيري بصحبة أبي يحي الزنهاجي الضرير صاحب الكرامات الذي علمه ان يتقبل بالصبر اضطهاد العامة.[1]

رحلات ابن عربي :

ظل الشيخ صائلا جائلا بين البلدان وقضى بقية حياته سائحا بين المغرب والمشرق، معلما ومتعلما، وأخذ بنصيحة مشايخه في أن يروي ظمأه بالمعرفة ولن يتسنى له ذلك إلا إذا تنقل بين البلدان والأوطان لأن السياحة عنصر من عناصر الطريق الصوفي.

بدأ رحلاته بزيارة مدينة مرور قبل سنة 590هـ، وهناك التقى بشيخ صوفي عظيم اسمه ابو محمد المورورري، وكان لذلك الالتقاء ثمرات نافعة وفوائد رائعة، وبعد ذلك رحل إلى مدينة الزهراء ثم إلى قرطبة ثم ارتدا إلى اشبيلية ولقي بها شيوخا تسامى بعلو كعبه في طريق الصوفي فقصدوا إليه طلبا للتعرف به والإفادة من علمه وخبرته.

ولم يلبث ابن عربي أن انطلق إلى خارج الأندلس شطر المغرب العربي فذهب غلى تونس سنة 590هـ وعاد إلى اشبيلية في نفس العام وقد أفاد من رحلته غلى تونس إفادة كبرى فقد لقي هناك صوفيا كبيرا اسمه أبو محمد عبد العزيز وكذلك ابن الخميس الكتاني من سادة القوم آنا ذاك ومر على تلمسان وزار قبر خاله يحي بن يغان وفي العام التالي سافر إلى فاس ثم عاد إلى اشبيلية مرة أخرى وفي عام 593هـ ارتد إلى فاس وأقام بها فترى عاكفا على العبادة والمجاهدة وملاقاة الشيوخ الأجلاء من الصوفية، كأمثال الشيخ ابي عبد الله محمد بن قاسم إمام مسجد الأزهر بفاس وتتلمذ على يده تلاميذ كثر أمثال ستان بن حيون .[1]

ثم ذهب إلى سبتة والتقى هناك ببعض الصالحين وكذا في طريق عودته إلى الأندلس سنة 594هن وفي غرناطة التقى بشيخ جليل هو أبو محمد عبد الله الشكاز هدا الأخير وصفه ابن عربي أنه من أكبر من لقيهم بهذا الطريق ولم يرى مثله في الاجتهاد وكان ذلك سنة 595هـ وفي العام نفسه توجه إلى مسقط رأسه مارسيا ومنها توجه إلى المرية وأقام في هذه الأخيرة طويلا يعكف على العبادة والتأليف ويلتقي بصديقه الصوفي أبي محمد عبد الله الغزالي تلميذ الشيخ ابي العباس بن العريف احد أعلام التصوف، وهناك الف الشيخ كتاب مواقع النجوم ويعتبر كتابا هاما ولم يلبث في عام 597هـ أن اتجه إلى المغرب مرة أخرى والتقى في مراكش بشيخ زاهد من شيوخ التصوف وهو الشيخ أبو العباس البستي ومن هناك انتقل إلى فاس بناء على أمر إلهي صدر فيه ليصطحب من هناك شخصا اسمه محمد الحصار إلى المشرق.

أما رحلاته إلى المشرق بدأت سنة 598هـ كما تقول المصادر، بعضهم يقول أن الرحلة سياسية نظرا لما ساد المغرب من فتن واضطراب ويرى آخرون أنها تعود لهجرة العلماء والشعراء وكان منهم ابن عربي مر بطريقه على

مصر وتوافد عليه هناك الأولياء والعلماء يطلبون رؤيته والافادة من علمه وفضله ومعرفته أقام بالطائف قريبا من مكة فترة من الوقت ثم عاد إلى مكة ولقي فيها بعض الصوفية وفي عام 602هـ رحل إلى بغداد ولكنه بقي اثنتي عشرة يوما فقط استأنف بعد ذلك السفر إلى الموصل للقاء الشيخ علي بن عبد الله بن جامع وبعدها اتجه صوب مصر سنة 603هـ حيث اقام هناك بصحبة بعض الصالحين ومن القاهرة توجه إلى الإسكندرية حيث لم يقم فيها طويلا، ثم غادرها إلى مكة والتقى في مصر أبي حسن الصباغ كما ذكر علي صافي حسين وسلطان العاشقين ابن الفارض وبعد مكوثه لفترة غير طويلة بكمة رحل إلى آسيا الصغرى وحط رحاله في قونية عاصمة الإقليم الخاضع للمسلمين في الدولة البيزنطية آنذاك.[2]

رب هناك كثيرا من الموردين على رأسهم صدر الدين القرنوي ولم يستقر هناك وواصل تجواله مارا بعدة مدن منها قيصر ومالطيا وسواس.

ثم لم يلبث أن دخل العراق فزار حيران وفي عام 608هـ التقى بالشهاب السهرودي في بغداد، ارتفعت منزلة الشيخ في بغداد ارتفاعا عظيما وكثر التلاميذ من حوله وتطايرت شهرته في كل مكان لكن سرعان ما تركه عائدا إلى مكة سمة 611هـ التي لم يقم فيها طويلا وسافرا إلى قونية ثم تركها إلى حلب في السنة الموالية ثم بعد ذلك سافر إلى حمص حيث وجد تكريم سلطانها أسد الدين يشركوه كمحاولة منه ليظفر لإبقائه عنده نهائيا لكن لم يستطع لأن الشيخ غادر إلى دمشق ليستقر بها نهائيا سنة 620هـ حتى وافته المنية ولبى نداء ربه الكريم وسعد بجواره هنيئا سنة 638هـ.[1]

موقف العلماء منه:

اختلف العلماء فيه كثيرا منهم من نظر إليه أنه أحد فلاسفة الإسلام فهو عندهم إمام أهل الكشف خاتم الولاية كما أن محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء والمرسلين، والحق أن الفلسفة الصوفية اكتملت بالشيخ الأكبر والكبريت الأحمر ابن عربي فأصبحت فلسفة صوفية ذات منهج واضح تسعى لتقريب ما وراء العقل إلى العقل ومنهم من نظر إليه على أنه رأس الضلالة والالحاد وعلى رأسهم شيخ الاسلام ابن تيمية وعلي القهري الذي له رسالة يرد بها على كتاب فصوص الحكم لابن عربي.

ومن أبرز المدافعين عن ابن عربي الإمام السيوطي حيث ألف تنبيه الغبي في تبرئة ابن عربي والفيروز أبادي صاحب القاموس، السهروردي وصلاح الدين السفدي وتقي الدين السبكي [2]

وقد أجازه الكثير من العلماء منهم ابن عساكر إمام وقته في علمه وابن الجوزي الذي كان علامة عصره في الحديث وصناعة الوعظ، والحافظ السلفي أحد الحفاظ المكثرين وما هذه الإجازات إلا دليل على ما وصل إليه ابن عربي من قدرة فائقة وبراعة لا نظير لها وتفوق لا حد له في سائر العلوم التي برع فيها هؤلاء العلماء الأفاضل.[3]

مصنفات الشيخ الأكبر:

أ – الفتوحات المكية: يقع في 65 بابا يلخصها الباب التاسع والخمسون من الكتاب نفسه والكتاب في التصوف وعلم النفس، اختصر الشعراني الفتوحات في كتابه اليواقيت والجواهر .

ب- فصوص الحكم: وهو الذي ألب الفقهاء عليه وخاصة شيخ الاسلام ابن تيمية

ت- ديوان ابن عربي: وهو مجموع شعره معظم مافيه فاتر متكلف

ث- مفاتيح الغيب

ج- التعريفات

ح- فتح الذخائر والأخلاق

خ- مواقع النجوم ومطالع أهلة الأسرار والعلوم

المصادر التي اعتمدها ابن عربي :

- ميزان الاعتدال للذهبي
- نفح الطيب
- العقد الثمين في تاريخ البلد الامين
- الموسوعة الصوفية عبد المنعم الخفاجي
- الأعلام الزركلي[1]

دراسة تطبيقية لقصيدتي " مريضة الأجفان " و" تناوحت الأرواح" :أولا:" مريضة الأجفان "

يفتتح الشاعر في نصه هذا ب :

مرضي من مريضة الأجفان *** عللآني بذكري عللآني

جو هذا الجمام مما شجاني ***هفت الورق بالرياض وناحت

يظهر في بادئ الأمر للقارئ العادي أنهما بيتين غزليين ، يتحدث من خلالهما الشاعر عن محبوبته ، و التي يطلب ممن معه أن يذكرونها له ، ولكن على حسب ماجاء في "ترجمان الأشواق " ، فإنه يقول : لما مالت عيون الحضرة المطلوبة للعارفين من جانب الحق سبحانه بالرحمة والتلطف إلينا أمالت قلبي بالتعشق إليها ، فإنها لنا تنزهت جلالا وعلت قدرا وسمت جبروتا وكبرا لم يتمكن أن تعرف فتحب فتنزلت بالألطاف الخفية إلى قلوب العارفين ، بقوله :" ووسعني قلب عبدي " ضرب من التجلي تعلق القلب عند ذلك فكان الحب وكان الميل الدائم وهو المرض المحمود وقله : عللاني بذكرها ، لما ذكر المرض طلب التعلل وما بأيدي الكون منه إلا الذكر فإن ضبطه وتحصيله محال فطلب ما يجوز له طلبه وهو الذكر ، كما قال تعالى :﴿فاذكروني أذكركم ﴾البقرة 152[1] .وثنى يريد ذكرا بلسان الغيب وذكرا بلسان الشهادة وكرر التعليل بالتثنية ، يقول اذكراه لي بذكري له وبذكره إياي . وهو حالة فناء العبد عن ذكر ربه بذكره لذكره بربه لربه بلسان عبده كما قال عليه الصلاة والسلام في الرفع من الركوع :" فإن الله قال على لسان عبده : سمع الله لمن حمده .و يقول هفت : تحركت ، وناحت : ندبت على المقابلة ، والشجو : الحزن ، يقول : تحركت الأرواح البرزخية بالرياض ، يريد رياض المعارف ، وناحت : ندبت ندبت نفسها حيث لم تخلص بذاتها لجناب الأرواح المسرحة عن التقييد بهذا الهيكل الذاتي فسحات الأطباق العلى على الملإ الأعلى فقابلت ندبا مني ما يناسبها من اللطيفة الممتزجة فأحزنها الذي أحزنني للمشاكلة التي بينهما . إذن يتحدث الشيخ الأكبر عن مقامات الصوفية و هو مقام ذكر الله تعالى الذي تحن إليه قلوبهم ، و تعلقهم به حتى يصل بهم الأمر إلى الهديان كما يحدث للسكران ، و راغبين في التقرب إلى الذات الإلهية و ربح ودّ الله سبحانه و تعالى .[2]

بأبي طفلة لعوب تهادى ***من بنات الخدور بين الغواني

طلعت في العيان شمسا ،فلما ***افلت اشرقت بأفق جناني

يا طلولا برامة دارسات *** كم رات من كواعب وحسان

بعد ذلك نجد أن الشاعر ذكر طفلة " لعوب " و هذا ما يمكن أن يفهمه الغالبية أنه تغزّل بفتاة أو طفلة في مقتبل العمر ،

لكن على العكس تماماً فهو يشير إلى حكمة إلهيّة علوية و هنا يكمن استعمال التشفير و يختلف القارؤون و الدارسون ، بعد ذلك نلاحظ أن الشاعر يتغزّل بالشمس و غروبها و كأنه يرى الله تعالى فيها ، لكنّه في حقيقة الأمر رمزٌ أو تشفير له دلالته الخاصّة ، لأنه حينما استعمل " الجنان" ، فهو عندهم

" الستر الإلهي "

وهذا شرح لهذه الأبيات من ترجمان الأشواق ليتسنى لنا معرفة المقصد الحقيقي حتى و إن كان مشفرا ليذهب عنا ذلك التغاير والاختلاف في التأويل.

الطفلة : الناعمة والإشارة بها إلى الطفولية وهو حدوث عهدها بوجودها للحق لا لنفسها .واللعوب التي يكثر منها اللعب ،يريد أنّها متحبّبة لا همّ لها ، مسرورة بقربها من مشهدها الأقدم ،والغواني : ذوات الأرواح وهن بينهم بكر لم يطمثها قبل هذه المعارف إنس ولا جان اي مستتر .يقول : ما التذ بها عالم الغيب ولا عالم الشهادة ،الإشارة إلى حكمة علوية إلهية ذاتية أقدسية مشهودة لهذا القائل ،لينة تورث السرور والابتهاج والطرب والفرح لمن قامت به فهي اللعوب تهادى اراد تتهادى بين حكم إلهية ولطائف قد تحقق بها العارفون الذين سبقوا لهذا العارف بالوجود .وجعلها من بنات الخدور .يشير إلى أنّها كانت خلف حجاب الصون والحفظ والغيرة في سيرها من الحضرة الإلهية لقلب هذا العارف في المنازل العلوية حتى تصل إليه ،وبهذا كنى عن ذلك بالخدور وهي الهوادج .ولا تكون الظعينة في ستر الهودج إلّا في الرحيل فإذا نزلوا كن مقصورات في الخيام .[1]

يشير إلى قوله صلى الله عليه وسلم :{ ترون ربكم كما ترون الشمس بالظهيرة ليس دونها سحاب }. يقول : طلعت هذه المتغزل فيها في عالم الملك والشهادة من الاسم الظاهر الكبير المتعال فأعطت في هذا التجلي ما تعطي الشمس في عالم الأركان من الأثر المعنوي والحسي إلى أن انتهت بالسير نصف دائرة العالم ثم عربت عن الملك والشهادة وكان غروبها شروقا في عالم الغيب والملكوت وبذلك كنى عنه بالجنان من الستر ولم يكن عنه بالقلب تحرزا من التقليب

والتلوين في هذا المقام .وذكر الأفق من اجل الاعتدال وانّ الإنسان فيما تعطيه نشأته لا يبقى عند نظره على حالة اعتداله إلاّ بالنظر لما يواجهه من قلبه وهو الأفق فمتى رام أن بنظر إلى غير الأفق خرج عن الاعتدال فلهذا قال بأفق جناني

أراد بالطلول / القوى الجثمانياتمنه . وأراد برامة من رام يروم ، وهي المحاولة وهذا هو النداء المنكر

بأبي ،ثم بي غزال ربيب *** يرتعي بين أضلعي في أمان

هذا البيت في أول قراءة لنا له نحس أنه موجه لحبيب أزلي ، قد سكن الأضلع و الشاعر يفديه بأبيه وهناك من يفهم قصدا آخر ، لكن المقصدية الصحيحة نجدها عند ابن عربي عندما شرح ديوانه فجمالية التشفير هنا تكمن في ترك الاختلاف للقراء خصوصا لمن لم يطلع على قاموس الصوفية وهنا يقول أفدي هذا المحبوب المتجلي لي بأبي وبنفسي ، يشير إلى ما يطرأ عليه لو اتفق حال الفناء فكنى عن هذا المحبوب بالغزال لوجهين الواحد لاشتقاقه من الغزل وهو التشبيه والمحبة والنسيب والوجه الآخر هو الوحش الذي يألف القفر.

كأنّه يقول هذا المعنى المطلوب لي مولده ومقامه إنّما هو القفر الذي هو مقام التجريد وحال التنزيه والتقديس ،أي إذا كان هذا حالي ومقامي ألفه هذا المعنى كما يألف الغزل القفر ، وقوله :ربيب أي مربى ، كأنّه يريد أنّه نتيجة عن مطلب الهمة ونظيره في العمل الصدقة تقع في يد الرحمان فيربيها كما يربي أحدكم فلوه أو فصيلة .فكذلك المعاني الإلهية إذا كانت معقولة للهمم حتى يتصور طلبها لها فتقبل تربية خلاف مالا يخطر على القلب فلا يتعلق به الهمة وقوله يرتعي من الرعي والرعي يكسب السمن الذي يحصل منه للمرتعي حسنا وجمالا فكذلك . هذا الوارد الإلهي إذا حصل بقلب الأديب زينه وحسنه بالأدب في التلقي فإنّه لابد ان يرجع إلى موجده فيرجع بأحسن صورة وهي موارد الأوقات وبابها في المعارف واسع وقوله بين أضلعي في أمان يعني للانحناء الذي في الضلوع كأنّها كالحاوية عليه الخائفة لئلا يطرقه شيء .[1]

ما عليه من نارها فهو نور*** هكذا النور مخمد النيران

ياخليليا عرجا بعنان*** لأرى رسم دارها بعياني

فإذا ما بلغتما بالدار حطا ***وبها صاحبي،فلتبكياني

القارئ لهذه الأبيات يجد نفسه أمام وصف أو تشبيه وكأن الشاعر يتحدث عن محبوبته ويطلب من خليليه التعريج بها وكذا الوقوف عند دارها ليراها بعينيه ، وبعد ذلك يطلب منهما إذا ما بلغا أن يحطاه بالدار ويبكيانه هذا الفهم الأولي للأبيات أما الفهم الصحيح فنجده عند الصوفيين وهنا يكمن الاختلاف ، وفي ترجمان الأشواق الأبيات مشروحة كالتالي ويسمح لنا هذا الشرح معرفة كمون التشفير

كأن قائلا قال له :إنّ هذا المحل الذي جعلته مرعى لغزالك ناري ،فقلنا له ما عليه من ذلك فإنّ النّور في الفعل أقوى منه .وهذه الموارد نورانية توردت من حضرة النور فلا شك أن النار الطبيعية التي بين أضلع هذا المحب لا تقوى لها ولا تنعدم فإن المحبة تشعلها وتقويها فغاية الأمر أن تخمد ، يريد أنه لا أثر لها فيه ، ألا ترى في الحسن كيف يذهب نور الشمس نور النار في رأي العين وإن كنا نعلم أن لها نورا ولكن اندرج الأضعف في الأقوى في أعيننا فنراها كأنها خامدة وفي نفس الأمر على ما هي عليه من الاشتعال .

يخاطب داعييه الذين للحق فيه من عالم غيبه وشهادته ، يقول لهما: أثنيا بعناني ، يريد الأمر الذي يحكم به والمشي على الطريق الأقوم لأرى رسم شخص دارها الحضرة التي منها صدرت هذه الحكمة المحبوبة أي ببصر من كونه بصرا لا من لا من كونه مقيدا بجارحة ولا جهة . فكأنه يطلب مقام المشاهدة إذ الحكمة ليست مطلوبة إلا من أجل ما تدل عليه.

يقول لهما إذا وصلتما إلى المنزل فحطا بي ولا شك أن هذه الحضرة تغني كل من وصل إليها وشاهدها فإن المشاهدة فناء ليس فيه لذة

يقول : فإذا رأيتماني قد فنيت عن وجودي وعنكما فابكياني لكما لا لتعطيكما بفنائي عما تعطيه حقائقكما ، فإن لم أجد الدار ووجدت الأثر بكيت مثلكما .[1]

وقفا بي على الطلول قليلا *** نتباكى ، بل أبك مما دهاني

الهوى راشقي بغير سهام *** الهوى قاتلي بغير سنان

عرّفاني إذا بكيت لديها *** تسعداني على البكا تسعداني

واذكرا لي حديث هند ولبنى *** وسليمى، وزينب وعنان

في هذه الأبيات من القصيدة يتحدث الكاتب عن الهوى وكأنه عاشق ولهان ، وهذا الهوى قد قتله ويذكر ،من هام

بالعشق البشري كهند ولبنى وسليمى وهذا ما يفهمه القارئ العادي لهذه الأبيات ..

لعلّ الصوفيون استعملوا هذه الأسماء لما اشتهرت به من حبّ عند العرب ، فضربوا بها المثل في الحب الإلهي وهذا ما يؤكده شرح الشيخ الأكبر لهذه الأبيات إذ يقول في البيت العاشر :قفا بي إن أجد رسم الدار على آثارهما و آثارهم فيها . ولما شرك بينه وبينهما في البكاء وهما اثنان وهو واحد غلب الكثرة على القلة فقال : لأنهما ما فقدا شيئا وهو الفاقد فهو الباكي فغلب التباكي على البكاء من أجلها . ثم بين مقام انفصاله عنهما فأضرب عن التباكي ببل فقال : بل أبك مما دهاني من فقد الأحبة ورسوم المنازل ولم يبق بيدي سوى الآثار التي هي بقايا الديار . ثم أخذ يصف حالة تحكم الحب فيه بسلطانه

وصفه بالرشق حالة أثره فيه على البعد وهي حالة الشوق . ووصفه بالقتل بغير سنان يشير إلى حالة أثره فيه على القرب وهي حالة الاشتياق .

فهو يقول : سواء بعد الحبيب أو قرب فإن أثره فيّ لازم و أمره فيّ متحكم .ونفى السهام والسنان المحسوسين . أي أنا مقتول من مشهد الغيب و الملكوت لا من جهة الجوارح أي اللحاظ الفاتكة فهي معنوية . ثم أخذ يستفهم صاحبيه بعد ذلك.

يقول لهما :إذا بكيت عندها هل تتباكيان معي لبكائي مساعدة أم لا ؟ أي تعلماني من علوم المشاهدة التي عندكما ما يليق بهذا الوطن ؟ فإن البكاء من العيون وهي دموع حارة لأنها عن حزن فتكون علوم مجاهدة .[1]

يقول لهما :عللاني بذكر أمثالي و أشباهي ولكن بذكر المحبوبات منهم لا بذكر المحبين لهن إيثارا لذكرها على ذكري وراحة لي بسماع ذكر من يناسبها . ولهؤلاء المذكورين من المحبوبات حكايات ، وطول ذكرها لا يسع هذا الشرح لها، وقد أفرد الناس لها أماكن في كتب الآداب ، في حكايات هند صاحبة بشر ، ولبنى صاحبة قيس بن ذريح ، وعنان جارية الناطقي وزينب من صواحب عمر بن أبي ربيعة، وسليمى جارية في زمانا رأيناها وكان لها محب يهواها . والإشارة بهند إلى مهبط آدم عليه السلام ، وما يختص بذلك الموطن من الأسرار ، ولبنى إشارة إلى اللبانة و هي الحاجة ، وسليمى حكمة سليمانية بلقيسية وعنان علم أحكام الأمور السياسيات ، وزينب انتقال من مقام ولاية إلى مقلم نبوة.[1]

و لعلّ ما التمسناه في شعر ابن عربي عامّة ، و هذه القصيدة خاصّة ، أنه يحترق و يتعذب من جرّاء الحب ، متحدث على مرض أصابه ، و لكن ليس المرض الذي نعرفه ، لكنّه مرض من نوع آخر ، و هو مرض العشق و الهيام الذي أصبح متمكناً من صاحبه كالمرض الخبيث الذي استعصي طبُّه و لا يرتاح منه صاحبه حتى يُرديه قتيلاً ، و كل هذا ما هو إلاّ تعبير بالتشفير عن حالة الاشتياق ، حتى يذوق دمعاً من عينيه معبراً به عن الشوق لرؤية الحضرة الإلهية ، و بعدها يطلب ذكر أمثاله من المحبين العاشقين الهائمين لذلك المحبوب حتى يرتاح قليلاً

و ما نراه أن هذه القصيدة كان لها مستويان ، مستوى واقعي ، و الآخر تشفيري ، و لعلّ ما زاد هذه القصيدة جمالية و ذائقة ، ذلك الإبداع في الشعر ، ليترك القارئ مجالاً عمّا كان يعنيه قيها ، ليخلق لنا تشفيراً و اختلافا بالتأويل ، و تغايراً بين القرّاء

ثانيا:قصيدة : " تناوحت الأرواح"

قراءة في عنوان القصيدة :

- عندما تقف عند عنوان النص الصوفي هنا ،" تناوحت الأرواح " و عندما نرى كلمة " تناوحت " يتبادر إلى ذهن كل قارئ ، ذلك البكاء الحادّ المتبادل فنتخيل الموقف الحزين في أذهاننا ، و ما نكاد نصل إلى الكلمة الثانية من العنوان حتى تقف مذهولين و بمّا الشيء الذي يجعلنا كذلك ، هو كيف لأمر ماديّ "التناوح "ان يضفي على أمر معنوي و هي " الأرواح " و لعلّ ابن عربي هنا يتحدث عن الأرواح " التي هامت عشقاً بالذات الإلهيّة ، و قد أعطى عنواناً جميلاً لقصيدته ، و ذائقة " لا مثيل لها ، و قد يتقبل العقل فكرة تناوح الأفكار لما في وحي التناوح من معنى عالة بالعواطف و الأحاسيس ، و قد عبّر لنا شيخنا الأبو عن ذلك الحزن الكبير الذي يعتريه ، مستعملاً زمن الماضي و ما يدّل عليه على وقوع ثابت للحدث الذي لم يلبث حتى انتهت حركتيه بتفاعل و تجاذب لفعل البكاء بين ذلك الجمع من الأرواح هذا ما لا يمكن لقارئ عادي أن يفهمه ، و لا يستوعبه و لا أن يتخيل ذلك الموقف ربما ينظر إليه نظرة ميتافيزيقية لا يمكن حتى الحديث عنها . "تناوحت الأرواح"

ألا يا حمامات الأراكة و البان *** ترفقن لا تضعفن الشجو أشجاني

ترفقن لا تظهرن بالنوح و البكى *** خفي صباباتي و مكنون أحزاني

في هذين البيتين وكأن الشاعر يطلب من الحمامات النائحات عدم كشف حزنه الذي لا يبديه للناس وهذا ما لا يتقبله العقل بالنسبة للقارئ العادي ، أما بالنسبة للمتصوف فهو أمر آخر بحيث يتحدث ابن عربي عن هذه الأبيات مترجما إياها بشرح مفصل بحيث يعني بالحمامات : واردات التقديس و الرضى و النور و التنزيه ، ، فالتقديس الرضى للأراكة لأنّه شجر يستاك به و هو مطهرة للفم و مرضاة للرب ، و النور و التانزيه للبان من حيث الدهن و من حيث البعد، كما قال : " فكانت البان" أي كانت "سليمى" فقال للواردات رفقا علي لا تضعفن من التضعيف ما تلقين إلي في خطابكن من ثمرات التعشق و المحبة المهلكة للمحبين ، أي خطابكن يشجي و يضاعف شجوي، و قد يكون من الضعف أي شجوي يضعف لشجوكن ؛ و يخاطب الواردات التي ذكرناها فيقول لا تظهرن بالنوح التي هيالمقابلة في الشجو و البكاء إرسال المدامع لسبق المقدور و عدم تبدّله، و قوله خفي صباباتي ما تنطوي عليه الضلوع من رقة الشوق للمنظر الاجلى و مكنون أحزاني ما تستره من ألم الفقد عند رجوعها إليها.[1]

أطارحها عند الأصيل و بالضحى **تحية مشتاق و أنه هيمان

تناوحت الأرواح في غيضة الغضا**فمالت بأفنان علي،فأفناني

و جاءت من الشوق المبرح و الجوى *** ومن طرف البلوى إليّ بأفنان

يقول: أطارحها أقول مثل ما تقول .يشير إلى حالة الصدى الذي هو رد الصوت إليك بما يخرج منك ،و قوله تحية مشتاق و أنة هيمان فهي المطارحة و الحنين للاشتياق و الأنين للهيمان

يقول : تقابلت الارواح كنية عن نيران الحب بالغضا، و الغيضة شجرة و وصفها بالميل فإن لهيب النار الذي هو المارج فإنها بمنزلة الأغصان للشجر فتُميلها الرياح كما تُميل الأغصان ، فمن هنا أوقع التشبيه لها بالغيضة و الافنان و هذا يعتبر رمزا استعمله ابن عربي قال : و كان ميل هذه الأفنان الشوقيةاللهبية لتغنيني عني حتى يكون هو و لا أنا .غيرة على المحب أن يكون له وجود في نفسه لغير محبوبه فكان كما أراد فقال : "فأفناني ميل هذه الأفنان، و وصفه بالنوح لكون المحبة تقتضي الجمع بين الضدين .

يقول : ساقت معها إليّ فنونا كثيرة من الشوق المبرح أي المظهر لما يكنه جناني من هواه و الجوى الذي هو الانفساح في المحبة لأنه غلى الحقيقة مأخوذ من الجو و من طرف ، و أول كل بلاء أصعبه فإذا سكنت إليه النفس هان عليها و البلوى من الابتلاء أي ساقت إلي أوائله التي هي أصعبها

فمن لي بجمع والمحصب من منى*** ومن لي بذات الأثل ، من لي بنعمان

تطوف بقلبي ساعة بعد ساعة ***لوجد وتبريح وتلثم أركاني

كما طاف خير الرسل الكعبة التي *** يقول دليل العقل فيها بنقصان

وقبل أحجارا بها ، وهو ناطق *** وأين مقام البيت من قدر إنسان

فكم عهدت أن لا تحول وأقسمت *** وليس لمخضوب وفاء بأيمان

من لي بالجمع بالأحبة في مقام القربة وهي المزدلفة. والمحصّب موضع تحصيب الخواطر المانعة من قبل هذه النية المطلوبة للمحبين . ومن لي بذات الأثل الذي هو الأصل ، فإن الأصل في المحبة أن تكون أنت عين محبوبك وتغيب فيه عنك فيكون هو و لا أنت .من لي بنعمان أي بهذا المقام الذي يكون به النعيم الإلهي القدسي .[1]

شرح البيت السابع : أي تتكرر عليه مع الأنات لتقلبه هو في الحالات ولذلك جاءه بالقلب ولم يقل بالنفس ولا بالروح . وقوله: "لوجد وتبريح "، من أجل إلقائها في الوجد بها والشوق المزعج إليه ." وتلثم أركاني" يعني الأركان الأربعة التي قام عليها هذا الهيكل ، وتلثمه أي تقبله فوق اللثام يعني الحجاب ، فإنه ما في قوته مشاهدتها إلا بواسطة وقد طافت بقلبه فقد غمرت ذات المحب حسا ومعنى هذه الحقائق .

يقول فيما بعد : هذه الواردات قد يكون منها ما فيه امتزاج بالمزاج ، فشفر هذا وهو يعطي كنية عما فيها منها

بالمخضوب ولهذا وصفها بعدم الوفاء ، وتسمى هذه واردات نفسية وهي التي وردت حين خاطبها الحق ، وأخذ عليها العهد والميثاق ، ثم بعد ذلك لم تثق بمقام التوحيد له بل أشركت على طبقاتها فإنه ما سلم من هذا الشرك أحد فإن كل أحد قال : أنا فعلت ، وقال على حين غفلة من مشاهدة القائل : فيه و به من هو .

ومن عجب الأشياء ظبي مبرقع **يشير بعناب،ويومي بأجفان

ومرعاه ما بين الترائب والحشا *** و يا عجبا من روضة وسط نيران

يقول : من أعجب الأشياء ظبي ، يرمز بها إلى لطيفة الإلهية ، مبرقع .

يقول : محجوب بحالة نفسية وهي أحوال العارفين المجهولة، فإن العامّة تظهر بما تظهر به الطائفة المحققة من الصور بخلاف أصحاب الأحوال و لا يتمكن التصريح من أهل هذا المقام بأحوالهم فإنهم يكذبون لعدم الشاهد ولكن يعرفون بالإشارة والإيماء عند بعض الذائقين لأوائل أحوالهم .و أراد بالعناب هذا ما أراده بالمحصّب في اليد قبلة و الإيماء بالأجفان .[1]

يقول : أدلة النظر في أحكام أصحاب هذا المقام يقوم للذائقين لأوائله فتقع المعرفة لهم فيهم أنهم و إن اشتركوا مع العامّة في صورة الحكم الظاهر فهم بائنون في أسرارهم في أصلها فشتان بين من ينطق بنفسه وبين من ينطق بربه واللسان واحد عند السامع في الشاهد

مرعاه بين الترائب و الحشا : من العلوم التي في صدره ، والحشا : ما حشي به باطنه وقلبه من الحكم والإيمان . كما قال وضرب بيده إلى صدره : إن ها هنا لعلوما جهة لو وجدت لها حملة ثم أخذ يتعجب من محب أحرق بنيران المحبة و الاشتياق كيف لم تحرق ما يحمله من الحكم و العلوم التي بين ترائبه و في حشاه ، ووصفه بالروضة لاختلاف أزهارها و أثمارها ، فإن فنون العلوم الكثيرة متنوعة ومن شأن النار إذا تعلقت بالأشجار أحرقتها وهذه علوم محمولة في هذا الشخص ونار الحب متأججة في ذاته فكيف لم تذهب بهذه العلوم فلا يبقى لديه علم أصلا ؟

والجواب عن هذا أنه منه تكون و إذ تكون شيء عن شيء لم يعدمه ذلك الشيء . كما يقال في السمندل : إن كان حقا أنه حيوان يتكون في النار فلا تعدو عليه . ولما كانت هذه العلوم والمعارف نتائج غن نيران الطلب والشوق إليها لم تغن بها .

لقد صار قلبي قابلا كل صورة *** فمرعى لغزلان ، ودير لرهبان

وبيت لأوثان وكعبة طائف *** و ألواح توراة، ومصحف قرآن

أدين بدين الحب أنى توجهت *** ركائبه ، فالحب ديني و إيماني

لنا أسوة في بشر وهند و أختها *** و قيس و ليلى ثم ميّ وغيلان

لقد صار قلبي قابلا كل صورة .

كما قال الآخر :

" ما سمي القلب إلا من تقلبه "

فهو يتنوع بتنوع الواردات عليه وتنوع الواردات بتنوع أحواله و تنوع أحواله لتنوع التجليات الإلهيّة لسره ، وهو الذي كنى عنه الشرع بالتحول والتبدل في الصور ، ثم قال : " فمرعى لغزلان" ، أي إذا وصفنا بالمرعى كنينا عن السارحين فيه بالغزلان دون غيرها من الحيوانات لأن كلامنا بلسان الهوى و بالغزلان يقع التشبيه بالأحبة للمحبين في هذا اللسان ، و لاشك أن عين الفرس سوداء متسعة و لكن ما وقع التشبيه إلا بعين الغزلان .

وقوله :" ودير لرهبان " ، يقول : إذا جلعناهم رهبانا من الرهبانية جعلنا القلب ديرا للمناسبة لأنه منزل الرهبان وموضع إقامتهم .[1]

و هذا القلب القلب صورة بين الأوثان ، لما كانت الحقائق المطلوبة للبشر قائمة به التي يعبدون الله من أجلها فسمي ذلك أوثانا . ولما كانت الأرواح العلوية حافة بقلبه سمى قلبه كعبة ، وهي الأرواح المذكورة له ، إذا مسه طائف من الشيطان فهن أصحاب الملمات الملكية و لما حصل من العلوم الموسوية العبرانية جعل قلبه ألواحا لها . ولما ورث من المعارف المحمدية الكمالية جعلها مصحفا و أقامها مقام القرآن لما حصل له من مقام " أوتيت جوامع الكلم"

هنا يشير إلى قوله تعالى :{ فاتبعوني يحببكم الله } آل عمران : 31 ، فلهذا سماه دين الحب ودان به ليتلقى تكليفات محبوبه بالقبول والرضى و المحبة و رفع المشقة و الكلفة فيها بأي وجه كانت ، و لذا قال :" أنى توجهت " أي أية سلكت مما يرضي و لا يرضي فهي كلها مرضية عندنا .

وقوله :" فالحب ديني و إيماني " ، أي ما تم دين أعلى من دين قام على المحبة لمن أدين له به و أمر به على غيب . وهذا مخصوص بالمحمديين فإن محمد صلى الله عليه وسلم ، له من بين سائر الأنبياء مقام المحبة بكمالها مع أنه صفي ونجي وخليل وغير ذلك من معاني مقامات الأنبياء و زاد عليهم أن الله اتخذه حبيبا أي محبا محبوبا وو رثته على منهاجه .

ذكر المحبين في عالم الكون المهيمنين بعشق المخدرات في الصور من الأعراب المتيمين . و يعني بأختها جميل بن معمر مع بثينة وبياض و رياض و ابن الدريج و لبنى وغيرهم .

يقول : الحب من حيث ما هو حب لنا و لهم حقيقة واحدة غير أن المحبين مختلفون لكونهم تعشقوا بكون و إنا تعشقوا بكون و إنا تعشقنا بعين و الشروط و اللوازم و الأسباب واحدة فلنا أسوة بهم ، فإن الله تعالى ما هيم هؤلاء و ابتلاهم بحب أمثالهم إلا ليقيم بهم الحجج على من ادعى محبته و لم يهم في حبه هيمان هؤلاء حين ذهب الحب بعقولهم و أفناهم عنهم لمشاهدات شواهد محبوبهم في خيالهم ، فأحرى من يزعم أنه يحب من هو سمعه وبصره و من يتقرب إليه أكثر من تقربه ضعفا .[1]

هذا ما جاء من شرح لهذه القصيدة في ترجمان الأشواق وهي المقصدية الصحيحة وسنحاول إعطاء الرموز والشفرات التي جاءت في قصيدة " تناوحت الأرواح " وذلك التغاير الذي حدث بين القراء في فهم هذا النص الشعري.

إذن استفتح الشيخ الأكبر قصيدته هذه "ألا يا " و هو ينادي حمامات اعتلت أغصان شجرة الأراكة ، شجرة البان طالباً منهن الرفق به ما يلقين في خطابهن من ثمرات التعشق و المحبة المهلكة و بعد ذلك يكشف صبابته و مكنون أحزانه و بعد هذا او ذاك يتبادل معها الحديث باشتياق و هيام و قد تقابلت ارواحها توت الشجرة المتمايلة أغصانها ، و كأني بالشاعر في قصيدة غزلية أو قصيدة عشق و حب.

ثم يذهب ابن عربي للحديث عن أمله بلقاء الأحبة بمزدلفة ويرمز بذلك إلى عين الحبيب و ذاته و كذا النعيم ، فتكرر لديه حالات الرطب و التبريع تطوف به ، و تقبله كطواف و تقبيل الرسول للكعبة ، و قد اعطته هذه الخواطر عهدا بان لا تحول و لكنها لا تفي بعهودها ، هو يشير إلى امر إلهي شع سناه في شكل صبي او ما بأجفانه يرعى في صدره بروضه وسط لاعج من الشوق فعل اقلبه إلى مرعى لغزلان و دير لرهبان و كذلك به حاجات دنيوية و دينية مشفر لها بالأوثان و هيامات روحانية .

و قد بلغت درجة حب الشاعر لمحبوبته إلى الفداء بالأب و النفس من أجله و بعد ذلك نلاحظ أنه جرّد نفسه عمّا تحبّ ، و عدم اتباع شهواتها ، و كأنه يخاطب في حبيبته ،هنا نلتمس نوعا من التشفير و لكنه عند الصوفيين الفناء في الذات الإلهية ، و حلول إرادة النفس إلى إرادة الله ، و لمّا أخذ الحب بجوامع القلب اشتعلت النّار في هذا القلب بقدرته الإلهية ، و هو وحده القادر على إطفائها و إخمادها ، و بعد كل هذا يطلب الشاعر رؤية هذه الحضرة الإلهية ، مركز على الثناء في الذات الإلهية . وفي الأبيات الأخيرة من القصيدة يتحدث الكاتب مبيناً أن دينه دين الحب و هو تمام الدين اسْتوته ،من هام بالعشق البشري كقيس ليلى ..... و لعلّ الصوفيون استعملوا هذه الأسماء لما اشتهرت به من حبّ عند العرب ، فضربوا بها المثل في الحب الإلهي.

كخلاصة فإن الشاعر الصوفي شفّر قصيدته و كأنه يناجي محبوبته و يطلب فرحها و يخبرها أنه يفديها بأبيه نفسه ، لكن في قاموس الصوفية ، هو يصف حال الرجل الصوفي و ما يصيبه في ذلك الحب الحقيقي ناهيك على تلك الدمع التي يذرفها و تلك الطريق التي يسلكها رغم ما تستدعيه من جهاد كبير للوصول إلى الحبيب ، مظهرا لذة الاشتياق و الحنين إلى المحبوب ، واصفا صلة الحب الذي يتحكم فيه و في حياته .

لعلّ قصيدة " مريضة الأجفان " و " تناوحت الأوراح " قد دلّتا روح الشيخ الأكبر و خاصّة الغنائية ، و قد ظهرت في أجمل الحلل و أعلى درجات الجمال ، و الروعة و البيان و قد التمسنا فيها تلك الذائقة التي نظيرها في النصوص الشعرية ، و ما زادها قوّة انتماؤها لديوان " ترجمان الأشواق " الذي يعتبر ملمحة شعرية بامتياز

في حبه لله تعالى ، و قد بدت لنا الوحدة الموضوعية في النصين الصوفيين ، فالنص الأول يصبُّ في الحب الإلهي و التقرب إلى الله و الفناء في ذاته ، و الموضوع أو النص الثاني هو الآخر يتحدث لنا على الاشتياق إلى الله تعالى و كذا رسوله الكريم وإلى الكعبة الشريفة ، يعني كلا النصين وجهين لعملة واحدة ، و عبّر ابن عربي عن كل هذا بترابط

كبير بين الألفاظ و الكلمات و كذا الصّور و النغم ، معبّرا بذلك عن خواطره الجياشة و عواطفه الصادقة و افكاره التي ارتوت من عشق الله و الهيام به ، مستعينا بإيقاعات موسيقية عذبة ، و الدعوة الفنّية عند الشاعر في كلتا القصديتين في تحرك و تنقل مشاعري من حالة لآخرى

أما الصورة الشعرية في هاتين القصيدتين فقد جاءت في قمة درجاتها عذوبة " و موسيقى ، و لعلّ ما يجعلها كذلك الأسلوب الرائع لابن عربي مصدرا عواطفه الصادقة و تجربته الصوفية تصويراً دقيق جميلاً ، استطاع من خلاله التأثير به على الشعراء ليترك لهم التأويل فمن استطاع فك شفراته تبيّن له ذلك الجمال اللا متناهي ، و من لم يستطع ذلك على الأقل يلتمس تلك الجمالية في التصوير ، كيف لا و قد صوّر ابن عربي نفسه ذاك الإنسان العاشق الولهان و الحزين التشوق ، في القصيدة الأولى على انه ينتظر تلك الفتاة ، و في الثانية ذلك الحزن الذي يريد ملاقاة الحبيب المصطفى مستعملا الرموز في كلا القصيدتين ، التي كانت عباراتها قوية ، و قد سبكت بمثابة ، لا يجد فيها ضعفاً و لا هواناً .

و استعمل محي الدين الأسلوب الخبري الإنشائي نظرا المناسبة الوصف و التصوير ، و أبرز معانيه تلك الكنايات و الاستعارات و التشبيهات و التعبيرات المجازية ، و ما عرف عن ابن عربي براعته في اختيار الالفاظ العذبة ، فهو يختار لكل موضوع الفاظه المناسبة و لذلك نمسُّ عند قراءتنا لنصوصه صدق الشعور و سعة الخيال ، و كذا براعة الفن وذلك النص السليم رغم ذلك الخيال الذي ظهر جلياً لكنّه صافٍ إلى حدٍ بعيد .

خاتمة:

إن الأدب بحر واسع بفرقه وفكره وكذا شعره..ولعل هذا الأخير نال الحظ الأوفر من الدراسات التي كانت عبارة عن محاولات لفهمه، نظرا لما يحمل في طياته من أحداث ووقائع ، وقد حاولنا في مقالنا هذا الوقوف على الشعر الصوفي مع الشيخ الأكبر وقصيدتين من ترجمان الأشواق متأملين بعين البصيرة والذائقة والحس الجمالي لما يحويه الحرف الصوفي من أرق المعاني.

لذا وجب على قارئه أن يقف كرجل صوفي تعتريه لحظات الكشف دونما اختيار أو كسب، حتى تتجلى له تلك الجمالية.

. قائمة المراجع:

• **الكتب:**

_ ابن منظور، لسان العرب، تح: عامر أحمد حيدر، دار الكتب العلمية ببيروت، لبنان، ط1، 2005م

_ عبد المنعم خفاجي، الأدب في التراث الصوفي (ب ط)، مكتبة غريب

_ عبد الحفيظ فرغلي علي القرفي، أعلام العرب ، الشيخ الأكبر محي الدين بن العربي سلطان العارفين ،ط1 ،مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ب ت

_ محي الدين بن علي العربي ترجمان الأشواق ط 1 ، دار المعرفة، بيروت ،2005 .

-هدي فاطمة الزهراء ، جمالية الرمز عند ابن عربي،(ب.ط)

-مجدي كامل أجمل قصائد الصوفية، دار الكتاب العربي ، دمشق سوريا 1997

- .تقي الدين بن محمد بن أحمد الحسني الفاسي المكي، العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، مؤسسة الرسالة، ط2، بيروت 1986.

- عبد المنعم الحنفي، الموسوعة الصوفية، دار الرشاد، ط1، الإسكندرية، 1992.

• **المقالات:**

_ علي القاسمي ،الشعر و التصوف – الشبكة العربية العالمية . مجلة إلكترونية، 2017/02/09 .

_ صبري محمد خليل خيري، قضايا التغيير و مفهوم المفاضلة، موقع الدكتور صبري محمد خليل . 2017/02/09.

• **الاطروحات:**

بولعشار مرسلي،الشعر الصوفي في ضوء القراءات النقدية الحديثة، رسالة دكتوراه، أدب عربي، كلية الآداب و اللغات – جامعة وهران احمد بن بلة –.2014.

. الهوامش:

(1)_ بولعشار مرسلي،الشعر الصوفي في ضوء القراءات النقدية الحديثة، رسالة دكتوراه –جامعة وهران احمد بن بلة – كلية الآداب و اللغات .2014 . ص11.

(2) _ الدكتور علي القاسمي ،الشعر و التصوف – الشبكة العربية العالمية . 2017/02/09 .

_عبد المنعم خفاجي، الأدب في التراث الصوفي (ب ط)، (ب ت)، ص 167.(3)

_ معجم المعاني، معجم الكتروني، عربي عربي .مادة " شفر" .(4)

_ ابن منظور، لسان العرب، مادة "غير"، 47.)5(

_ صبري محمد خليل خيري، قضايا التغيير و مفهوم المفاضلة، موقع الدكتور صبري محمد خليل . 2017/02/09)6(

_ سورة آل عمران ، الآية: 41) 7(

(8)- ابن منظور،لسان العرب. مج 5،مادة "رمز " ص41 .

(9)_عبد الحفيظ فرغلي علي القرني، أعلام العرب ، الشيخ الأكبر محي الدين بن العربي سلطان العارفين ،مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط1 ، ب ت ، ص 23.

(10)_محي الدين بن علي العربي ترجمان الأشواق دارالمعرفة،ط 1 ، بيروت ، 2005 ، ص 21.
(11) -المرجع نفسه، ص21، 22.
(12)_ ينظر :المرجع السابق ص 24،45،44.

(13) - هدي فاطمة الزهراء ، جمالية الرمز عند ابن عربي، ص 109.
(14)_ ينظر عبد الحفيظ فرغلي علي القرني ، ص 52، 53، 54.
(15)_ المرجع نفسه، ص55، 56 ،57، 58، 59.
(16)_ ينظر :المرجع السابق ص 59 ،60، 61، 62.
(17)_ محي الدين بن علي العربي ترجمان الاشواق ص 12، 13.
(18)_ عبد الحفيظ فرغلي علي القرني ص 40، 41.
(19)_ محي الدين بن علي العربي ترجمان الاشواق ص 13 ،14.
(20)سورة البقرة ، الآية 152.
(21)- ينظر : ابن عربي، ترجمان الأشواق .
(22) ينظر المرجع السابق .
(23)- ينظر: المرجع السابق ص 100- ص101..
(24)- ينظر : المرجع السابق ص 102- ص103..
(25)- ينظر المرجع السابق ص104-ص105..
(26)- ينظر: المرجع السابق ص105-ص 106..
(27)- ينظر المرجع السابق ص107- ص 108.
(28)- ينظر : المرجع السابق ص109.
(29)- ينظر : المرجع السابق ص58- ص59..
(30)_ ينظر : المرجع السابق ص 60- ص61.
(31)- ينظر: المنظر السابق ص 62- ص 63..